«قصة حياة هندي مجهول»

بقلم فريدة النقاش

كان « نيراد شودهوري » يجلس الى امه كل مساء ، ساعة او ساعتين ، يسمع شكواها وحكاياتها التي كانت غالبا ما تفيض بالالم والحسرة . وكان « نيراد » صبيا غضا اخذت مداركه تتفتح حديثا على حقائق الوجود ، وعلى افق واسع جدا يضم تحت جناحيه ٤٠٠ مليون نسمة ، هم شعب الهند . وفي كل ليلة كان يقول لامه مواسيا «لا تتوقعي من الحياة يا امي ما لا تعطيه ، واذا لم تجدي السعادة في نفسك ، فلا تبحثي عنها في مكان اخر » . وكانت هذه الكلمات نفسها ، هي الحكمة الخالدة التي توصل اليها ذلك الشيخ بعد رحلة طويلة في الحياة الهندية وفي التاريخ ، كتبا واساطير وحكايات شعبية ، وفي الاحداث التي عاشها شعب الهند على مدى الفي عام من الاخذ والعطاء والرفض والامتصاص والتأقلم والثورة ، شهد فيها هذا الشعب المتصوف العظيم، الوانا من المجد والظلم ، من الحضارات العظيمة ومن الانهيار والتفسخ .. وكان من خلالها جميعا هو نفس الشعب الذي يعطي من روحه ويفتحها للعالم ، ويعيش بملئه ويسير في رحلات خالدة نحو الاستقرار والمستقبل. وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ المتعددة البعيدة والقريبة ، كان شعب الهند يصنع لونا من الثقافة يتفق مع هذه الفترة .. يعطيها من نفسه ، ويأخذ من طابعها لينتج شيئا جديدا ليس هنديا خالصا وليس غربيا خالصا .

وعبر هذه الاحداث والتغيرات ، وفي مرحلة من اهم مراحلها واحدثها واقربها الى الاذهان ، عاش ذلك الكاتب الهندي ، « نيراد شودهوري » ونما وترعرع في احضان تراب الهند وارضها «فليس امتع من ان يغوص الانسان بقدميه العاريتين في الرمل ، رمل الهند ، هذه الهند ، بلادي » كما يقول « نيراد » في كتاب اسماه « قصة حياة هندي مجهول » يضع فيه خلاصة تجربته مع الحياة والفكر والتاريخ خلال ستين عاما عاشها طولا وعرضا ، عمقا وبعدا .

والكتاب ليس مجرد قصة حياة كاتب هندي شيخ ، عاصر غاندي ونهرو وطاغور ، وتابع احداث ما قبل الاستقلال باربعين عاما حافلة ، ولكنه اشبه ما يكون بملحمة هندية قديمة تحكي لنا قصص الحب والحرب والبطولة ، ومغامرات الانسان ، فردا وجماعات ، وفي مجالات الفكر والحضارة والسلوك الانساني . وهو كما يقول الكاتب اقرب ما يكون الى تاريخ قومي للهند ، يسرد نظريا فترة الفي عام خلت ، ويحكي بالتجربة والمعاناة اليومية والتفاصيل الدقيقة حكاية النصف قرن الاخير من تاريخ الهند . فهو ينطلق من « كيشور جانج » القرية التي عاش فيها في شرق البنغال ، والتي هي في مجملها صورة لآلاف القرى الهندية البعيدة التي تعكس روح الهند وتراثها ، وتقدم نموذجا صادقا لكل الجوانب الانسانية في الهند ، ونموذجا للوضع الطبقي في المجتمع الزراعي الهندي .. وما دامت الصناعة شيئا حديثا جدا ودخيلا على تاريخ الهند فليس افضل من القرى الصغيرة نموذجا للحياة الهندية الحقيقية بكل ما فيها من سحر ومتناقضات . ينطلق الكاتب من هذه القرية في البنغال ـ جوهرة الهند ـ ليطوف بنا ، جولة حافلة وغنية، بمدن الهند وشعبها ، حتى لنكاد من شدة صدقه ان نمد ايدينا لنلمس هذه الملامح الحية لرجال الهند وصبيتها ونسائها ، الذين يتحركون في هذا الكتاب بحرية بالغة كأنهم اصدقاء اعزاء لنا من قديم الزمان .

وكما تبدأ كل كتب السير الذاتية ، يحكي لنا الكاتب قصة طفولته الاولى في هذه القرية ، وكيف كان العالم يتراءى لطفل صغير ذكي ، حيث تكتسب الاشياء كلها ، معاني بريئة ومدهشة .. القرية تنقسم الى جانبين يقعان على ضفتي بحيرة صغيرة يراها الاطفال والصبية بحرا عميقا لا قرار له ، وينظرون الى الضفة الاخرى كأنها عالم خاص ،يضفي عليه البعد غموضا وسحرا عظيمين ، ويسمع عنه الاطفال حكايات كأنها الاساطير . فهناك يقع حي البغايا الذي يتكون من عدة اكواخ قذرة متلاصقة وملعونة . تختبىء خلفها نسوة عليهن سمات الشياطين ، الكائنات الجميلة التي تخرج من الجحيم لتغري البشر بالوقوع في الخطيئة وارتكاب الاثم . وفي رحلات دورية جماعية الى الضفة المقابلة، كانت البغايا يذهبن الى اقسام البوليس ليسجلن اسماءهن في مشهد من اكثر المشاهد غرابة واثارة للدهشة في عيون صبية «كيشورجانج»..

وكان «نيراد » واخوته الى جانب نفر قليل من اطفال القرية يمثلون الطبقة الراقية الحاكمة . فهو ابن لمحام ناجح يمتلك ثروة لا بأس بها تمكنه من ارسال ابنائه الى المدارس التي انشأها الانجليز في القرية ، او في القرى المجاورة . ورغم ذلك فالاطفال جميعا حفاة ينظرون باحتقار بالغ الى رجال الدرك الانجليز حين ينتعلون احذيتهم ويدوسون على تراب القرية .. فهم لا يتصورون كيف يستطيع الانسان ان يشعر بارتباطه بالارض والتصاقه بالطبيعة ، وهو يضع هذا العازل الذي لا معنى له ، بينه وبين الرمال والطين والنباتات . اما ان يجلس الانسان على كرسي ، كعادة متكررة ، فان اهالي « كيشورجانج » يعتبرون ذلك تظاهرا بالثراء يصل الى حد الغرور . وعلى بساطتها وسهولتها فان الحياة في هذه القرية البنغالية ، لم تكن تخلو من المنغصات وحوادث العنف . فكثيرا ما كان يسمع الاطفال عن رجل قتل في فراشه ، او اخ سرق مال اخيه ، او عصابة احتالت على ارملة عجوز وسلبت اموالها « فكان العالم الواسع المحيط بنا ، من احد جوانبه مليئا بالقتل والنصب والتهجم على الاخرين ، والحرق المتعمد ، واغتصاب النساء والخطف والخلاف على الميراث ، والتنازع حول الملكية ، واساءة توزيع الثروات، وخيانة الارامل والبسطاء ، وتزوير الوصايا ، واختلاس العقود » .

وحين يعرض « شودهوري » لهذه الجوانب العنيفة من حياة الشعب الهندي ، يعمد الى المبالغة بعض الشيء ، لكي يضفي لمسة واقعية صارخة على الصورة التي تكونت لدينا عن الشعب الهندي الطيب المتصوف ، السلبي احيانا .. ولان القرية الهندية في ذلك العهد البعيد كانت الى جانب الظلال الرومانسية التي تتراءى للمشاهد من بعيد ، مليئة بالوان البؤس والفقر والظلم . فالمجاعات والاوبئة شيء مألوف جدا في حياة الفلاح الهندي ، تسندها الظواهر الطبيعية المتكررة .. فمع هذه الصورة الفائقة للبؤس لم تسلم القرى الهندية بين حين واخر من وقوع زلزال عنيف يقلبها رأسا على عقب ، ويشرد ابناءها ، او سيول هائلة تغرق المزارع وتخرب الارض ... فكأن الطبيعة ، والفقر الناتج عن استغلال اقلية طبقية للشعب ، والحكام الاجانب ، يتحالفون على ذلك الشعب الذي يرى فيه « شودهوري » تجسيدا « لما في الخليقة كلها من شجاعة وجبن ، وضعف وقوة ، وسلبية وايجابية » .

وبين « كيشورجانج » و « بناجرام » و « كاليكوتش » ينقلنا « نيراد » في براعة فائقة لنتعرف من خلال رحلاته مع اسرته ، التي تصل الى الاف الاميال ، على بلد ابيه ، وبلد امه ، وعلى جوانب دقيقة من

حياة الشعب الهندي وتقاليده وعاداته . وتكون هذه الفصول في مجموعها جزءا ممتعا من الكتاب ، يقودنا فيه الكاتب الى دخيلة الفلاح الهندي ، نتجول في أعماقه لنخرج بصورة انسانية متكاملة لحياته وعلاقاته مع الطبيعة والارض والسماء .

فليس اقدر من الهنود ـ الفلاحين الهنود بالذات ـ على ربط كل شيء بالسماء وبالآلهة .. مواسم الزرع ، والنمو ، والحصاد ، ترتبط بآلهة معينة مستمدة كلها من الملاحم القديمة او الديانات القديمة .. وللرياح ، والامطار ، والسيول ، الهتها التي يسعى الناس جاهدين لكسب رضاها حتى لا تغضب عليهم وتفسد حياتهم . ولكل وقت من النهار ، لدى الفلاح الهندي ، اغانيه الخاصة وصلواته . ففي « كيشورجانج » .. « تغني اللاليت في الصباح ، والسارانج في منتصف النهار ، والبوراش في المساء ، والبهاج في الليل » ، ولا تصلح الحان وقت لوقت اخر . وليس مستحبا ان يخلط الناس بين الحان فترات مختلفة من النهار والليل .

وكما تجلس الامهات في قرى مصر الصغيرة البعيدة ليغنين لاطفالهن الالحان الشعبية التي وضعها مؤلف مجهول ، وصب فيها كل مطامح الشعب واحزانه ، كانت الامهات في الهند يجلسن على (شرفات) البيوت الملتصقة بالارض ، وحين تغيب الشمس ، تبدأ الحكايات والاغاني .. تضع فيها كل ام الهموم التي تثقل قلبها وروحها ، وتشعر اكثر من اي وقت اخر انها قريبة الى الله . وهي في هذه الحالة لا ترتبط بالزمان او المكان . فليست احزانها او همومها ملكا لهذا العالم ، لانها شيء مختلف وبعيد تماما عن واقعية الحياة البشرية والتصاقها بالارض . فمثل المرأة المصرية ، قلما كانت الام الهندية تستشار في اختيار حياتها او مصيرها . وكان ذلك الظلم الذي يمتد عبر الاف السنين الماضية ينفجر كله في لحظة كهذه ، ويعلن عن نفسه بطريقة مفجعة لا تعرف عمقها وصدقها ، الا النساء انفسهن ، والا اللاتي عرفن هذا الالم وعشنه في الواقع .. فهي تزف الى رجل لا تعرفه . وتنجب عددا لا يحصى من الاطفال ، وتتحمل ـ اذا لم تكن ذات موارد خاصة ـ كل اعباء الحياة اليومية وتفاصيلها المتكررة المملة . وهي تعيش دائما مع عائلة زوجها حيث يمارس معها افرادها سلطات خاصة ويطالبنها بواجبات قاسية ومرهقة . ومن هنا كانت أحزان المرأة الهندية .. عميقة ضاربة الجذور في نفسها وضميرها . وهكذا يقول « شودهوري » انه قلما يجد وجها ضاحكا لفتاة أو امرأة هندية ، وقلما واجه ابتسامة صافية مشرقة لصبية هندية ، حتى هذه العلامات التي توضع فوق الانف بين العينين حين تتزوج المرأة في البنغال ، فانها لا تنطق بالفرح ابدا ، وانما توحي بالفجيعة ، رغم احمرارها الفاتح .

والحزن لا يكمن في قلب المرأة الهندية فحسب ، وانما يبدو انه سمة هندية خالصة تضرب جذورها في قلب الشعب الهندي كله. فحتى الملاحم التي تداولها الشعب على مر السنين والتي حفرت في الوجدان الشعبي صورا لا تنسى للبطولة والفضيلة ، حتى هذه الملاحم تفيض الحانها واغانيها بالحزن المتصوف العميق . ومن الغريب حقا ان الخير والحق ، رغم استبسالهما في الملاحم الهندية ، يموتان في النهاية .. والشر باسلحته المتعددة ، غالبا ما ينتصر ويسود . وكما يقول الكاتب « فاننا لا نجد نهايات اكثر مأساوية وحزنا من تلك التي تحدث في « الرامايانا ، والماهابهاراتا » . فحين نقرأهما نجد ان الخير يذبح منذ البدء على مشهد من ابطاله .. الرجال والالهة الذين ينتصرون له . ونفاجأ ان الحق يواجه من التحديات والمصاعب ما يحير الابطال ويدهشهم . وكل من الحق والخير يحارب معارك مريرة وقاسية ، ويواجه من المخاطر ما يملأ القلب رعبا ويشعر الانسان انه من الضروري ومن المحتم ان ينتصر الخير والحق بعد هذه المعارك الرهيبة الدامية اللامجدية . ولكن لحظة النصر ذاتها تحمل من المفاجآت والمحن ما يورث المرارة ويفقد المرء الثقة في كل شيء . في « الرامايانا » يحارب «راما» بضراوة لينقذ « سيتا » ، وبعد ذلك يتولى نفيها بنفسه . وفي « الماهابهاراتا » يسقط « كريشنا » صريعا ، وهو الاله الشاب ، والفارس الجميل الذي تعبده « الهند الام » وتبكي النساء لمرأى صورته المهيبة . اما « سيف ارجونا » المنيع الذي لا يلين فهو يخونه في اللحظة الحاسمة وفي اقسى المعارك . وفي المشهد الاخير من الملحمة العظيمة يعبر كل « الباندافاس » (جنود الاله) جبال الهمالايا سيرا على الاقدام ، وقد اعياهم الارهاق والتعب وطول الحرب ، وتفاجئهم الطبيعة بعاصفة ثلجية عاتية تعوق زحفهم في البدء ، ثم يسقطون جميعا صرعى ، باستثناء شيخ عجوز هو اكبرهم سنا .

ومن هذه الاحزان والنهايات المفجعة التي تملأ الملاحم والحكايات الشعبية الهندية ، يتوصل « شودهوري » الى تنمية اهتمام خاص عميق باحداث التاريخ العظيمة التي تنتهي بنهايات مفجعة . فكان يجد نشوة شيطانية في دراسة حضارة آخذة في الانهار ، وهي في قمة ازدهارها ، او قصة تاريخية تحفل بالاعمال المجيدة والابطال العظام ، ثم تبدأ في التآكل والتفسخ . وتولدت لديه متعة خاصة في متابعة احداث التاريخ البعيد منذ بدأت مداركه تتفتح على منابع الثقافة المتعددة ، وهو بعد صبي في الثالثة عشرة في « كيشورجانج » ، ويلازمه هذا الفضول ازاء اكتشاف التاريخ وقراءته واعادة تقييمه حتى سني دراسته الجامعية ، وبعد تخرجه من الجامعة ليعمل ويلمع في الحياة العامة كصحفي نشط يعاني في البدء طويلا ، كي يتوصل الى الرزق ، ثم يأخذ شيئا فشيئا في الانهماك في قضايا التاريخ القديم والحديث .

وبعد هذه الرحلة الطويلة في الكتب والحياة . يقدم لنا «نيراد» خلاصة استنتاجاته عن التاريخ الهندي والحضارة الهندية . ولا تقتصر رحلته على هذا القرن الذي نعيش فيه ، وعلى الاحداث التي كان شاهدا عليها باعتباره واحدا من ابنائها ، ولكنه يغوص في اعماق الهند الى الفي عام مضت ويحكي لنا بمنطق مقنع جدا قصة العصور الثلاثة التي اشتركت معا في صنع الحضارة الهندية ، والتي صبغت بالوانها المختلفة شكل الحياة في الهند القديمة والحديثة .

فهو يرى ان هناك ثلاث حقبات في تاريخ الهند الحضاري لا يربطها فيما بينها الا التسلسل الزمني . لان لكل حقبة خصائصها ومميزاتها ، وحين تنتهي لا تترك الا رتوشا ضئيلة على وجه الحياة الهندية ، فاعمق واصدق ما فيها يمتزج بالحياة الهندية ، ويصبح جزءا لا يتجزأ منها بحيث يكون من الصعب التفرقة بين ما هو حديث دخيل ، وبين ما هو اصيل في الشعب الهندي وقديم . وتنتهي هذه الحقبة دون ان تترك من نفسها وقيمها ما يصلح لتقيم عليه الحقبة التالية بنيانها ، ولا تكون هذه الحقبة بالتالي امتدادا لما سبقها ، او مقدمة لما سوف يأتي بعدها .

وهو حين يضع هذا التقسيم الثلاثي للتاريخ الهندي يعتذر في البدء عن تجاهله لمرحلة قد تكون هامة في تاريخ الحضارة الهندية . ولكنها تنتمي الى ما قبل التاريخ بكثير حيث يصعب على الدارس او الباحث التوصل الى حقائقها وتفاصيلها ، وبالتالي يكون من غير الامانة ان يتعرض لتقييمها .

اما الفترات الثلاث التي يتعرض لها الكاتب ، فهي حسب ترتيبه ، العصر الهندوكي الآري ، العصر الاسلامي ، ثم العصر البريطاني . وكما نرى من تسميتها ، وهي كما يذكر المؤلف تسمية شائعة في كتب التاريخ ، فانها ترتبط جميعا بالجنس او الحضارة الاجنبية التي غزت الهند ومارست عليها تأثيراتها الحضارية .

واذا بدأنا بمناقشة الفترة الاولى ، وهي العصر الهندوكي ، نجد ان الكاتب يعتبرها اطول الفترات الثلاث . اذ ان بدايتها لا يمكن تحديدها تاريخيا . فهي على وجه التقريب تبدأ مع القرن الثالث قبل الميلاد وتنتهي مع اواخر القرن الثاني عشر الميلادي . وترتبط هذه الفترة بدخول الجنس الآري الى الهند ، ودخول اللغة « السانسكريتية » معه ، والتي اصبحت فيما بعد لغة الحضارة الهندية الارية طوال خمسة عشر قرنا ، ارتبطت فيها الهند بهذا الجنس الدخيل ، واخذت تمتص وتتشرب كل التأثيرات الاجنبية التي اتى بها . ومع مرور الوقت وازدياد النفوذ والتوسع الآري في الهند ، كانت البلاد تصنع لنفسها بالتدريج نسختها

الخاصة من هذه الحضارة فتؤقلمها وتكيفها تبعا لظروفها ومتطلباتها المادية والروحية . واصبحت الحضارة الهندوكية السانسكريتية والنظام الاجتماعي الذي تولد في ظلها ، نتاجا محضا للحركة الآرية . وفي هذه المرحلة الهامة من تاريخ الحضارة في الهند ، قامت علاقات وثيقة بين الهندوكيين ، والامبراطورية الفارسية والملكة الهيلينية والامبراطورية الرومانية . واتسمت هذه المرحلة بالالتقاء الخصب والتأثيرات المتبادلة المثمرة بين هذه الحضارات . وكانت هناك حملات متتابعة على الهند جددت الدم الآري الذي كان يسري في عروق الشعب طوال هذه الحقبة الطويلة من التاريخ ، رغم ان الهندوكيين كانوا ينظرون اليهم في البدء على انهم اجانب قذرون لا يصح الاختلاط بهم ، ولكنهم سرعان ما امتزجوا بالشعب الهندي واصبحوا جزءا من كيانه لا يمكن فصله او استئصاله.

وبانتهاء هذه الفترة دخلت الهند مرحلة جديدة من تاريخها ، اصبحت فيه جزءا من امبراطورية اكبر واشمل ، وكونت حلقة هامة في حضارة اكثر اتساعا وشمولا وامتدادا في جنبات الارض ، وهي الحضارة الاسلامية التي سيطرت على الشرقين الاوسط والادنى وشمال افريقيا وجنوبي اسيا باكمله . ولم يكن الاسلام في هذه المناطق كلها مجرد غزو عسكري بقصد التوسع ، ولكنه كان عقيدة وحضارة وتاريخا شاملا . والمؤرخون ـ حسب رأي الكاتب ـ الذين يعتقدون ان هذه الفترة من تاريخ الهند كانت هندية لحما ودما ، ذات وشاح اسلامي خارجي فحسب ، مخطئون . فخلال فترة سيطرتهم على الهند كان المسلمون يعتبرون انفسهم جزءا لا يتجزأ من العالم الاسلامي الواسع المترامي الاطراف . وكانوا يعنون بشكل خاص باستمرار الرابطة قائمة ابدا بينهم وبين المجتمع الام . وبعد الكارثة التي حلت بالحضارة الاسلامية وغزو المغول لفارس واواسط اسيا ، اصبحت الهند ملجأ للعلماء ورجال الكلمة المسلمين .

وقد تركت هذه الحقبة من الحكم الاسلامي اول ما تركت في الهند، عددا هائلا من المسلمين وتراثا لغويا ضخما ترك اثاره على اللغات المحلية المتعددة التي تنتشر في اقاليم الهند ، وعددا كبيرا من المدارس والجامعات الاسلامية التي تعتبر من اهم واغزر مصادر الدراسات الاسلامية في هذا العصر ، حتى بعد انقراض الحكم الاسلامي منذ زمن طويل في الهند .

وبانتهاء الحكم الاسلامي في الهند انتهت الرابطة التي كانت تشدها الى العالم الاسلامي . ولكن ارتباطا جديدا ، ذا جذور جغرافية وحضارية اوسع واحدث ، كان في انتظار الهند في مرحلتها الجديدة. فدخلت بانتهاء الحكم الاسلامي الى محيط التوسع الاوروبي ، وكونت جزءا هاما من مناطق الامتداد الحضاري الغربي الذي يرى «شودهوري» انه سوف يكتسح العالم اجمع ليؤثر في الحضارات والشعوب المختلفة، وليترك عليها ظلاله وبصماته .

ورغم ان الهند كانت في هذه الفترة ، جزءا من المستعمرات البريطانية ، فان هذا لم يكن ليعني بأي حال ارتباطها فحسب بالحضارة الانجليزية وانما كان ارتباطها بالحضارة الاوروبية والعالم الغربي بشكل عام ، والذي تشكل الامبراطورية البريطانية جزءا منه . ولكن انتهاء الحكم البريطاني في الهند لا يقودنا الى القول بانتهاء التأثير عليها او فصم الرابطة التي تشدها الى هذا العالم من العصر الحديث.

وفي كل فترة من هذه الفترات ، كانت الهند تمتص اعمق ما في الحضارات الغازية ، لتنتج فيما بعد نسخة هندية خاصة بها ، هي مزيج من عصارة الحضارات التي ارتبطت بها في كل مرة ، ومن الروح الهندية والتراث الهندي الاصيل . ولم يكن ارتباط الهند بهذه الحضارات شيئا عرضيا يتم بمحض الصدفة ، لان الهند بلاد شاسعة ذات ثروات مادية وبشرية هائلة تقدم اغراء لا يقاوم للحضارات والامبراطوريات والدول التي تسود العصر وتشكله بلونها الخاص . فحين ارتبطت الهند بالآريين كانت هذه الحضارة واحدة من اقوى واغنى حضارات هذا الزمان. وحين ارتبطت بالدولة الاسلامية كان الاسلام في قمة ازدهاره، وكانت الامبراطورية الاسلامية تمتد وتتسع في مشارق ارض ومغاربها ، والعقيدة الاسلامية تحقق انتصارات رائعة في جهات متعددة من العالم . وحين بلغت الهند كانت تحمل وراء ظهرها تراث ما يقرب من سبعة قرون من الانتصارات والامجاد والفتوحات . وحين تفسخت الدولة الاسلامية كان المد الحضاري الاوروبي في اوجه ، وفي موجات متتابعة زاحفة من انحاء الارض وصل هذا المد الى الهند حاملا معه تراث الحضارات القديمة التي احياها عصر النهضة والاصلاح ، ثم عصور التوسع الغربي . فليست الهند جزيرة صغيرة منسية لكي تصبح هدفا للغزوات الثانوية في التاريخ ، ولكنها شبه قارة واسعة خصبة تضم شعبا كبيرا وتراثا ضخما يغري القادمين بالاضافة اليه والتعلم منه . وهكذا كانت الهند في كل فترات الازدهار الحضاري الاساسية من تاريخ العالم معقلا هاما من معاقله ، ومصدرا يحتوي على الملامح الاساسية لهذا الازدهار .

وعلى مدى خمسين عاما ، هي نصف القرن الاخير من الحقبة الثالثة في التاريخ الهندي كما قسمه الكاتب ، والتي انتهت رسميا عام ١٩٤٧ باعلان استقلال الهند ـ ولكنها سوف تستمر الى ان ينحسر المد الحضاري الغربي الذي ما زال مزدهرا ومتقدما كما يرى الكاتب ـ تقع الاحداث الهائلة والاحداث الصغيرة التي تضمها خمسمائة صفحة هي حجم هذه السيرة الذاتية لهندي مجهول .

واختار الكاتب لسيرته ان تكون لهندي مجهول ، حتى نستطيع ان نخرج بالدلالات التي يريدها ، وهي ان هذه السيرة رغم تركيزها على شخص واحد ، طفولته وصباه وشبابه ، على محنه الخاصة وآرائه وقيمه ، فانها كذلك سيرة لحياة كل هندي من ابناء هذه الفترة . وقد لا يكون ذلك صحيحا تماما من حيث ان الكاتب ينتمي الى طبقة لا تمثل الهند في مجموعها ، وهي الطبقة المتوسطة التي تفتحت امامها اكثر من غيرها فرص التطور والصعود في الحياة العامة ، وتوفر له الامن والاطمئنان في مواجهة الفوضى والفقر المدقع الذي عاشت فيه جماهير الفلاحين الهنود ، وكما يقول الكاتب « كنا ننتمي الى الاقلية ، وهي المئات التي تعيش حياتها ، وليس الى الاغلبية التي تحتوي على الاف الجثث الميتة » . وهو رجل ساعدته ـ الى جانب مواهبه ـ حياة طبقته على ان يتلقى قسطا وافرا من التعليم والرعاية ، واتيحت له فرص التثقيف الذاتي الهائلة التي لم تتوفر لملايين الهنود . ففي شعب يصل تعداده الى ٤٠٠ مليون نسمة تعد المواهب الهائلة بالملايين ، خاصة في شعب كشعب الهند يحمل وراءه هذا التراث العريض من الحضارة والتاريخ . ومع ذلك فان كل ما تقدم من تحفظات ، لا ينفي عن هذا الكتاب الضخم قدرته الفائقة على تقديم نموذج للحياة الهندية ، وعلى التاريخ الاجتماعي والثقافي لشعب الهند في هذه الفترة . بل ان هذه التحفظات ذاتها ربما تكون في صالح العمل . فالطبقة المتوسطة الهندية ـ كما يقول الكاتب ـ لعبت دورا هائلا في حركة التطور وفي النضال من اجل الاستقلال ، وفي الخروج بالثقافة الهندية الى العالم ، وقدمت لهذا العصر جماعة من خير ابنائه واصدقهم تعبيرا عن الهند .

والظاهرة الاولى التي يتعرض لها الكاتب في هذا السرد الذاتي العام ، هو الدور الذي لعبته الطبقة الوسطى ، والمثقفون الهنود ، سواء كانوا ينتمون الى هذه الطبقة او الى غيرها من الطبقات التي يتكون منها المجتمع الهندي . ورغم ان الطبقة المتوسطة حملت على كتفيها تنظيم حركة المقاومة ضد الاستعمار في الهند ، وتعبئة الشعب الهندي تحت قيادتها لمواجهة الحكم البريطاني .. الا انها في الوقت ذاته ، كانت في مجموعها تستفيد فائدة كبيرة من وجود هذا الحكم في الهند، بحكم وضعها كوسيط بين كبار الاقطاعيين الهنود والحكم البريطاني مما اورثها ـ رغم قيادتها للحركة الوطنية ـ موقفا يمكن وصفه بالسلبية تجاه الاستعمار . ومع ذلك استمرت هذه الطبقة بعد الاستقلال السند الاداري الذي اعتمدت عليه الحكومة الوطنية في محاولتها تهنيد الجهاز الاداري والجيش والتعليم ، والتي كانت في معظمها اجهزة بريطانية علما ودما وفكرا .

اما المثقفون الهنود واغلبيتهم من الطبقة المتوسطة ، فكانوا ، كما يقول ((شود هوري)) جماعة من المرتزقة الذين يلقون بكل شيء في سبيل الحصول على وظيفة لا يوفرها لهم الا الحكم الانجليزي . وهم في اغلب الاحيان لا يبدأون انطلاقهم في مجالات الفكر والثقافة ، بالغوص في التراث الهندي القومي ، ولكنهم يتجهون الى تراث الغرب ، ولا يكتشفون حقيقة الثقافة الهندية الا من خلال كتابات المستشرقين والعلماء الغربيين . وهم يبذلون جهدا قاتلا لينالوا الاعتراف من بلادهم وشعبهم، الا انهم يفشلون في ذلك . فيهيمون على وجوههم في الارض ، ثم يأتي المفكر والفنان منهم بعد عناء ، متوجا باعتراف اوروبا وامريكا بموهبته وعبقريته ، وبعد ان يكون قد طاف خلال فترة هامة من حياته وتكوينه الفكري بهذا العالم .. وحينئذ فقط تباركه الهند وتمنحه اعترافها .

ويسوق ((نيراد)) مثلا لذلك شاعرا هنديا متوهج العبقرية هو ((ماكميل دات)) الذي اعتنق المسيحية في صباه وكتب ما يزيد على مائة (سوناتا) باللغة البنغالية ، وهو يكاد يموت جوعا مع زوجته واطفاله في فرساي ، ولم تنل موهبته واشعاره حقها من التقدير والتقييم الا بعد موته المفجع. واعترفت الهند ((بغاندي)) زعيما لها ، بعد عودته من جنوب افريقيا .. فاستمعت اليه وفتحت له قلبها وبايعته قائدا لمعركة التحرير ، وخليفة لالهها الجميل ((كريشنا)) الذي تجسدت فيه كل فضائل الهند ومثلها.

ويقودنا الحديث عن غاندي الى قضية اخرى هامة اثارها ((شود هوري)) في كتابه ، هي قضية القومية الهندية ((فرغم انها لم تتشكل دفعة واحدة ، الا انها بدأت في اظهار مميزاتها الخاصة منذ الايام الاولى للحكم الاسلامي)) .. وهو يقرر هذه الحقيقة التاريخية ردا على الذين يظنون ان القومية الهندية ظاهرة حديثة النمو فهم مخطئون تماما ، واذا ما ظنوا كذلك انها مجرد سلعة صدرت الينا من الغرب ، فهم يقعون في خطأ اكثر فداحة . اما هؤلاء الذين يؤكدون ان الحربين العالميتين ، الاولى والثانية فتحت بوابات الفيضان امام القومية الهندية ، فهم بالطبع ضحايا لنقص خطير في ثقافتهم التاريخية)) .

ويقول ((شود هوري)) ان للمهاتما ((غاندي)) ـ الذي اثار خيال ملايين الهنود واعاد اليهم امجاد آلهتهم الخيرة التي تمتلىء قلوبها بالحب والسلام ـ الفضل في منح القومية الهندية مضمونا مبسطا جعل منها حركة جماهيرية عارمة . واستطاع غاندي ان يحشد لمبادىء العصيان المدني واللاعنف والزهد ، قوى معنوية ومادية ضخمة ، حين التزم بخطين اساسيين في حركته الجديدة ، احدهما قومي والاخر اجنبي ، مما شد انظار العالم واثار اعجابه العميق بهذه الحركة .

والخط القومي يبدو في التقشف وقهر النفس والاستشهاد في سبيل الخير والمبدأ ، وهي قمة المثالية والتصوف من ضمير الانسان الهندي الذي ترتبط جميع قيمه ارتباطا عميقا بهذين المحورين .

اما الخط الاجنبي فهو مشابه لفكرة السلام في المسيحية التي اضفى عليها ((غاندي)) سحرا شرقيا خلاقا . ومهما كانت طبيعة ونوعية التغيير الذي احدثه غاندي في الهند ، فما من زعيم اخر كان قادرا على قيادة الهند مثلما قادها ((غاندي)) . وما من عقيدة اخرى كانت تستطيع النفاذ الى قلب الهند مثلما نفذت عقيدة ((غاندي)) الذي نبع من تراث الهند وتاريخها ، هذا التاريخ الطويل المليء بمئات الانبياء والمبشرين .. لم يستطع احدهم ان يصبح ملكا لجماهير الهنود البؤساء الحفاة ، مثلما كان غاندي الذي بقي ابدا منهم ولهم . فرغم الثقافة الاوروبية ، ورغم الغربة والرؤيا الواسعة للعالم ، عاد غاندي بمعدنه الهندي الطيب ، وعاش في عريه الروحي التام امام شعبه ، حتى الموت . ثم جاءت النهاية فكانت الجموع والرجل شيئا واحدا في الهند.

والاثر العميق الذي تركته زعامة غاندي في ضمير الشعب الهندي، شيء لا يمكن ان يحدث أو يتكرر في بلد اخر .. لانه نمط فريد متوحد لا يمكن ان تصنعه الا بلاد كالهند ، ولا يمكن ان يستجيب له شعب الا شعب الهند . ورغم النهاية المفجعة التي انتهت اليها حياة ((غاندي)) والتي حاول البعض ادانة الشعب الهندي بها ، ووصمه بعدم الولاء وبالخروج عن تصوفه .. الا ان هذه السمة الروحية العميقة التي اضفاها ((غاندي)) على وجه الهند السمح لا يمكن أن تتلاشى او تشوه.

ويرى ((شود هوري)) ان هذا المضمون الروحي الشديد البساطة الذي ادخله غاندي على القومية الهندية عبأ لها جماهير او جيوشا لم تعرفها عقيدة او حركة او فكرة من قبل . ولكن المبالغة في البساطة ، كما يرى الكاتب اساءت اساءة بالغة من جانب اخر الى القومية الهندية .. ان العصر بمعتقداته وتياراته المتعددة الخفية والظاهرة تحتم على اي حركة تتصدى لتفسيره ومجاراته ان تكون في مستوى هذا التحدي ، قادرة على الصمود له وتكييف نفسها مع قيمه .

وكأحد ابناء الهند ((هذه الهند امنا)) ومن خلال جولاته المتعددة، وفي مدنها ((كلكتا ، ودلهي ، وبومباي)) وفي الاف القرى المترامية الصغيرة ، يصل الكاتب الى حكم قاس على الشعب الهندي . فيراه شعبا سلبيا ضعيفا ، يتلقى المصائب والمحن بتصوف الانبياء والقديسين، ويتلقى الفرح والانتصار بزهد عميق في هذا العالم وفي خيراته .. لكثرة المظالم التي وقعت عليه ولكثرة ما لاقى طوال تاريخه من عذاب ومحن ، وقدم من تضحيات ، سواء للطبيعة التي نادرا ما تكون سخية معه ، أو للحكام الاجانب الذين امتصوا دمه حتى اخر قطراته . فبات شعبا يضم كلتا يديه في استسلام بالغ امام الاحداث ، ولا يسعى الى الحياة ليواجهها ، يناور ويقاتل من اجل ما يريد .. علمته الاديان العديدة المنتشرة في الهند الاتجاه بقلبه والامه وشكواه الى الآلهة والى السماء والى الارض الام ، فصاغ كل ذلك في اغنيات والحان وقصص دينية عميقة الجذور في تاريخ الهند القومي والحضاري ، وكذلك يرى ((نيراد شود هوري)) انه ((مثل كل الفضائل الهندية ، كانت المساوىء الهندية نتاجا للضعف والسلبية ، لا تجد وراءها دوافع الخير او الشر)).

ولكن الكاتب يعود ليفرد صفحات طويلة لحركات المقاومة التي نظمها شباب الهند في اوائل القرن ضد الاستعمار البريطاني ، وكيف كانت المبادرة في ايديهم دائما ، وكيف انتشرت هذه الحركات في المدن والقرى الهندية ، وضمت الى صفوفها خيرة شباب الهند من مثقفين وفلاحين ، كانوا غالبا ما يتعرضون للتعذيب والتشريد بسبب الاعمال الفدائية التي يقومون بها ضد قوات العدو . ويروي الكاتب كيف كان اخوه الاصغر يشترك سرا في احدى هذه الجمعيات ، وكيف تعرض طوال فترة شبابه الاول لرقابة البوليس الانجليزي ، وللاعتقال ذات مرة، وهو يقول : ((كنا نعرف ان وسيلتنا الوحيدة للحصول على الاستقلال هي القوة العسكرية)) .

وهو بذلك يضع نفسه في تناقض قد لا يلتفت اليه ، حين يؤكد بشدة ان الشعب الهندي ((سلبي وضعيف)) وهو ((لا يمتلك الحيوية ولا ارادة القوة التي تنبع من هذه الحيوية)) .

ويروي لنا الكاتب بعد ذلك كيف تسلحت قريته ((كيشور جانج)) عن اخرها حين تقرر عقد مؤتمر اسلامي فيها ، وحيث توقع كبار رجالاتها ان تنعكس الاحداث الدامية التي وقعت في البنجاب بين المسلمين والهندوس على قريتهم الصغيرة . واستنفر كل رجل اسرته وعشيرته واعدوا الاسلحة والمخابىء ، لكي يفاجئوا ((العدو)) وينقضوا عليه . وبدأت منذ ذلك الحين عملية تفرقة مصطنعة في المدارس والشوارع بين المسلمين والهندوس . ولكن المذبحة لم تتم كما توقع الجميع بعد ان كان الاستعداد لها قائما على قدم وساق في كلا الجانبين حيث استعد الهندوس فرحلوا نساءهم واطفالهم بعيدا عن القرية ، واستعد المسلمون فسلحوا انفسهم وقرروا الاستشهاد . ولكن المؤتمر لم ينعقد في اللحظة الاخيرة ، وفشل كل شيء .

ويفسر لنا ((نيراد)) اسباب العداء الهندوسي ـ الاسلامي ، فيقول ان التعصب لا يكمن في اي من العقيدتين ، ولكنه في الحقيقة كراهية الهندي لكل ما هو ((ليس ذاته)) وعداؤه الشديد ((للاخر)) ..

ويرى ان هناك كذلك سببا حضاريا يكمن وراء هذه الكراهية العميقة التي يشعر بها الهندوس للمسلمين ، وهو ان المسلمين حكموا الهند ذات يوم وكانوا اسيادا على شعبها ، وتركوا بصمات واضحة على

وجه الحضارة الهندية لا يمكن محوها . ومن ناحية اخرى نجد العامل الطبقي الذي يتدخل في تحديد العلاقة ليس بين المسلمين والهندوس فحسب ، ولكنه بين الهندوس انفسهم . ففي « كيشور جانج » كان اطفال الطبقة المتوسطة الكبيرة التي تحكم القرية يلعبون دائما مع الاطفال المسلمين من نفس مستواهم الاجتماعي ، ولكنهم يرفضون باباء ان يلعبوا مع ابناء الفلاحين سواء كانوا هندوسا او مسلمين ، ويعاملونهم كالمنبوذين سواء بسواء . ولكن قيمة هذا العامل يبدو واضحا اذا اخذنا في الاعتبار وجود اغلبية هندوسية في الطبقات الكبيرة المستغلة ، بينما غالبية المسلمين تعيش في الطبقات الدنيا المستغلة .

ويحمل الكاتب الشعب الهندي ، كل تبعات ومسؤوليات هذا العداء الذي وصل الى حد القتال ، وكان يقود الهند الى حافة الحرب الاهلية بين حين واخر ، وبلغ ذروته في تقسيم الهند الى جزءين ، احدهما للمسلمين والاخر للهندوس ، وزرع بذور عداء ابدي بين العقيدتين والشعبين . ان الشعب الهندي يتحمل المسؤولية كلها ازاء هذا الوضع التاريخي والعقائدي الخاطىء الذي يولد المزيد من المرارة والحقد في نفوس الاجيال الشابة الصغيرة « ولتحمني السماء من الوقوع في هذا الغش الصارخ الذي يسود بين الهنود ، والذي يرجع اسباب النزاع الهندي الاسلامي الى الحكم البريطاني ، ذلك رغم الفائدة الكبيرة التي جناها الحكام الاجانب من ذلك النزاع .. لقد استفاد الانجليز من السلاح الذي صنعناه ثم وضعناه في ايديهم ، ليستخدموه ضدنا » .

وهذا الموقف من الكاتب يحمل قدرا من المبالغة والتجني . فالحكم البريطاني في الهند لم يستفد فحسب من السلاح الذي وضعه الهنود في يديه ، ولكنه ساهم مساهمة كبيرة في صنعه وشحذه وتصويبه الى قلب الهند كلها . وكثيرا ما تسبب في اذكاء الخلافات (الاسلامية ـ الهندوسية) التي ادت الى اسالة بحور من الدماء في جميع ارجاء الهند . وبدلا من توجيه الحراب المسمومة الى صدر العدو الحقيقي وهو الاستعمار ، كان الهنود يوجهونها الى صدور بعضهم البعض ، وكانوا يشتبكون في معارك لا تنتهي ، تعميهم بضراوتها عن حقيقة القضية والمعركة القومية التي تحتاج الى جهدهم وتناسقهم .

والى جانب هذا العرض التاريخي الرائع لكثير من جوانب الحضارة الهندية ، وخاصة في العصر الحديث ، يزخر الكتاب بلمسات فلسفية وفنية رائعة . انه ليس مجرد سرد لأحداث مرت بالكاتب في طفولته وشبابه والتي هي طفولة وشباب الشعب الهندي في هذه الفترة الفنية من التاريخ .. ولكن الكتاب يرقي من مجرد السرد الى مستوى عال جدا من التعميم والرمز والايحاء ، تضع « شود هوري » في الصف الاول بين كبار الفنانين ذوي الحكمة العميقة والنظرة الشاملة للوجود. لقد عرف كيف يستخلص من الاحداث الصغيرة والكبيرة في الحياة اليومية في التاريخ ، دلالات عامة ، صاغها برقة بالغة واسلوب انجليزي راق ورشيق ، واستخدم أساطير الهند وتراثها الفني حججاذا سانيدا ، لتكون شاهدا على صواب الحكمة التي وصل اليها عبر طريق شاق من المعاناة المتكررة « التي كان اسوأ ما فيها انها لم تكن شيئا بطوليا او متساميا ، وانما كانت كئيبة ومهينة » ، ورغم عتابه الرقيق للحياة ، ورغم النظرة الحزينة الزاهدة التي ينطلق منها الى العالم ، والتي غالبا ما تقود الانسان الى اتخاذ موقف سلبي وضعيف تجاه الحياة ، فهو « يعرف جيدا اننا اذ لم نجرب المعاناة والالم ، فلن نستطيع ابدا ان ننمي ارادتنا وشخصيتنا » . والارادة الصلبة سمة هندية بحتة عرفت في ممارستهم لتعذيب النفس التواصل القاسي ، حتى يصلوا الى الله والى الخير .

و « شود هوري » روائي من الطراز الاول يمتلك القدرة الخارقة على الملاحظة الدقيقة الثاقبة ، تجده بين حين واخر يتوقف قليلا ليستريح من عناء هذا المشوار الطويل الذي لا ينتهي ، ليصف لنا مدينة او قرية او امراة جميلة أو زلزال ، فيقول « كان الرجال يجرون . كان كل شيء غير حقيقي ، كاننا في غيبوبة رغم الوضوح الذي لا لبس فيه. فالارض تهتز دون انقطاع . ولكن سيرها نحو الدمار كان بطيئا جدا ، حتى ليقارن بالاحتضار . ورأيت الحائط الشمالي من منزلنا يتهاوى ، وشاهدت كل مرحلة من مراحل وقوعه بالتفصيل ، ابتداء من السقف حتى مستوى الارض ، وكانما كانت صور الانهيار تعرض امامنا بالحركة البطيئة في السينما » .

وهو يرسم لنا صورة رائعة لاسرته ، خاصة ابويه . وهما نموذجان للرجل والمراة الهندية . وربما قصد « شود هوري » الى اظهارهما بهذه الصورة حتى يتعرف المرء على حقيقة الهند من خلالهما . وهما الكائنين المثاليين بما فيهما من ضعف وقوة وشجاعة وحذر ، وحماس للحياة .. « فكان ابي مدفوعا برغبة جامحة في ان يخلق نمطا جديدا من الكائنات الانسانية .. نمط يعينه على الارتفاع فوق بيئته حتى يوقع انتقامه عليها ، الذي لن يكون انتقاما فرديا او عرضيا ، ولكنه انتقام عام جذري ولكل وقت » .. وكانت امه « امراة بنغالية حزينة ، صلبة تصاب بنوبات هستيرية مفجعة ولا علاج لها » ..

وبعد هذه الرحلة الطويلة في ربوع الهند شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وعمقا .. يأتي الينا « نيراد شود هوري » منهكا ، ونلمح على وجهه ظل ابتسامة معتذرة عما قد يكون ارتكبه من اخطاء في هذه السيرة الطويلة للهند .. « فانا رجل اعرف اي عثرات تكمن في طريق من يريد ان يصل الى الحقيقة عن الهند المعاصرة » .

ولكنه رغم الغضب وطول المعاناة والاسى ، ورغم العلامات المجهدة للقدمين العاريتين على غلاف الكتاب ، فان « شود هوري » يضع امامنا في النهاية الحقيقة التي توصل اليها عن الحياة والموت وكنه الوجود.. « انني سوف اكون راضيا اذا ما اصبحت لا شيء بعد الموت . وذلك مقابل نشوة لحظة كنت حيا فيها وعشتها ، وقد توصلت الى اكتشاف هذه الحقيقة وهي ان الفصل الاخير يظل مجيدا ابدا ، مهما كانت المسرحية في مجموعها سيئة وفاشلة » .

فريدة النقاش
القاهرة

بعض منشورات

دار الاتحاد

يوم ميسلون	للعلامة ساطع الحصري
الفعالية الثورية في النكبة	للدكتور نديم البيطار
اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية	
حرب وحضارة ارنولد توينبي	ترجمة غياث حجار
العبث البير كامو	ترجمة سالم نصار
العالم في مفهوم برتراندراسل	ترجمة شفيق الارناؤوط
الاشتراكية البناءة هنري دهمان	ترجمة غياث حجار
الديموقراطية جورج بوردو	ترجمة سالم نصار
ثـريا	للاستاذ فاضل السباعي
ثلوج كليمنجارو ارنست همينغواي	ترجمة غياث حجار
الشيطان والاله الطيب جان بو سارتر	ترجمة غياث حجار
عينـاك	للشاعر ابراهيم بري

دار الاتحاد للطباعة والنشر ص. ب ٢٢٥٩ ـ بيروت